

## الفصل السادس

### الروح والنفس عند إخوان الصفا وابن سينا

أولاً: من هم إخوان الصفا؟

ذكر أبو حيان التوحيدى وهو من المعاصرين لإخوان الصفا ويعرف نفرًا منهم معرفة شخصية، قال عنهم في مقايساته<sup>(١)</sup> حيث قال: ((سألنى وزير صمصام الدولة في حدود سنة ٣٧٣هـ (٩٨٣م) عن زيد بن رفاعة)) ومذهبه. فقال يومذاك أبو حيان - وكان يعرف زيد بن رفاعة ويعرف أصحابه على ما يبدو - ((لا ينسب إلى شىء ولا يعرف له حال)) (إذ تكلم في كل شىء)) وقد أقام بالبصرة زمانًا طويلاً، وصادق بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة، منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستى - ويعرف بالمقدسى - وأبو الحسن على بن هارون الزنجاتى، وأبو أحمد المهرجاني، والعونى وغيرهم، وصحبهم وخدمهم.

وكانت هذه العصابة قد تألفت بال عشرة وتصافت بال صداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله. وذلك أنهم قالوا: إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة؛ لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية، ثم قال: و صنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها وسموها ((رسائل إخوان الصفا)) وكتبوا فيها أسماءهم وبثوها في الوراقين ووهبوا للناس)).

هذا كل ما وصلنا من إشارة تاريخية إليهم، وكل التعليقات الأخرى التى نقلها عنه القفطى فى كتابه أخبار الحكماء لا تخرج فى جوهرها عما ذكره أبو حيان التوحيدى. ويزعم إخوان الصفا أن ((جماعتهم)) ترجع إلى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، وقالوا

(١) المقايسات، ص ٤٥.

ذلك في رسائلهم<sup>(١)</sup>، وبذلك فهم يزعمون أنهم من نسل المسلمين الأوائل، وأنهم إنما كشفوا عن أنفسهم أو أرادوا أن يكشفوا عن أنفسهم - في القرن الرابع الهجري.

وقد نشأ هؤلاء الإخوان في العراق، وربما بالبصرة على وجه التحديد، غير أن هذا إنما يدخل في باب الظن لا من باب اليقين. ولكنهم ذكروا صراحة أن اسمهم مأخوذ من صفوة الإخوة، والرأى أنهم اختاروا اسمهم من باب الحماية المطوقة في كتاب كليلة ودمنة<sup>(٢)</sup>، وكانت الصداقة الخالصة هي أبرز صفاتهم حتى ذكروا ((أن صداقتهم قرابة رحم))، وحتى إن أحدهم ليضحى بنفسه في سبيل إخوانه، وكان مذهبهم هو النظر في جميع العلوم الطبيعية والرياضية والإلهية وأنهم لا يعادون علماً من العلوم ولا مذهباً من المذاهب.

وكان إخوان الصفا مسلمين؛ لأنهم نشأوا نشأة إسلامية ثم بنوا فلسفتهم على أساس إسلامي، واعتقدوا أن الإسلام خير الأديان وأن محمداً عليه الصلاة والسلام خير الرسل.

والواقع أن الدارس لإخوان الصفا ورسائلهم يتضح له بجلاء أن إخوان الصفا كانوا أصحاب ((مذهب فلسفي أخلاقي)) أي جماعة من المتفلسفة الأخلاقيين الذين يرون أن الدين الحقيقي إنما هو الصداقة الصحيحة والمعاملة الحسنة والإحاطة بالعلوم وتنزيه النفس واتباع العقل.

### ثانياً: النفس والروح عند إخوان الصفا:

ويرى إخوان الصفا أن في الإنسان شيئين متميزين تماماً: الجسد الذي هو مجموع الأعضاء الظاهرة والباطنة المحسوسة من لحم وعصب ودم وما شاكلها، ثم ذلك الجزء الناطق العاقل، ومن المحرك للجسد المدبر له والمظهر به ومنه أفعالا وأقوالاً وعلوماً. هذا الجزء هو ((النفس)) الغريب أن إخوان الصفا - من بين جميع الفلاسفة - يرون النفس والروح شيئاً واحداً، وإن كان يسبق إلى الظن أحياناً أنهم يفرقون بينهما.

وهم يعرفون النفس بأنها جوهرة روحانية بسيطة مساوية شفافه حية بذاتها علامة بالقوة فعالة بالطبع وأنها باقية بعد مفارقة الجسد، إما ملتذة مسرورة فرحانة، وإما مغتمة خاسرة، وجوهر النفس ألطف وأشد روحانية من جوهر النور والضياء، والدليل على ذلك قبوله (قبول جوهر النفس) رسم المحسوسات والمعقولات جميعاً.

أما ((الأنفس الجزئية))، أي نفوس الأشخاص، فإنها أجزاء من النفس الكلية، قالوا

(١) رسائل إخوان الصفا، ٤ / ٨٥ و ٤ / ٣٠٧.

(٢) الرسائل: ١ / ٦٢ - ٦٣.

((اعلم يا أخی، أن نفسك هي أحد النفوس الجزئية، وهي قوة من قوى النفس الكلية والفلكية و(لكن) لا هي بعينها ولا منفصلة منها. وذلك أن للنفس الكلية أنواعاً كثيرة من الأفعال، منها أفعالها الشخصية التي تظهر من أشخاص الحيوانات وما يجري على أیدی البشر من الصنائع)).

### ثالثاً: أين كانت النفس قبل أن تتصل بالجسد؟

قالوا: ((قد أتى على النفس دهر طويل - قبل تعلقها بالجسد - كانت في عالمها الروحاني ومحلها النوراني ودارها الحيوانية<sup>(١)</sup> مقبلة على علتها (التي هي) العقل الفعّال تقبل منه الفيض والفضائل والخيرات. وكانت منعمة ملتذذة مستريحة مسرورة فرحانة، فلما امتلأت من تلك الفضائل والخيرات ((أقبلت تطلب ما تفيض (هي) عليه تلك الخيارات والفضائل)) فأقبلت على الهیولی ((تفيض عليها)) فلما رأى الباری ذلك مكنها من الجسم وهیأها لها)). ولكن إخوان الصفا يعدون لهم النفس من عالم العقل وإقبالها على التأمل في الهیولی ((جنایة)) وتستحق عليها الإخراج من الملاء الأعلى ((عالم الألوھية)). قالوا: ((إن النفس الجزئية لما أهبطت من عالمها الروحاني وأسقطت من مراتبها العالية للجنایة، غرقت في بحر الهیولی وغاصت في قعر أمواج الأجسام.. فعرض لها (شراء كثير) من الدهشة والأهوال والمصائب)) هذه النفس الجزئية تنزل إلى الجسد ((يوم مسقط النطفة)).

### رابعاً: الغاية من حياة النفس في الجسد:

((النفس في الجسد كالجنين في الحرم))، فكما أن الجنين إذا تكامل خلقه في الرحم خرج منه إلى الحياة الدنيا، فكذلك النفس فإنها تبقى في الجسد حتى تستكمل فضائلها وتتمكن من بلوغ الكمال بحسب طاقتها. فالنفس تحتاج إلى الجسد حتى ترقى وتتهذب وتتعلم، فإذا ((كانت نفسك في الدنيا عمياء هي بعد الممات في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً)). ولا ريب في أن جميع العلوم والمراتب الشريفة تناولها النفس قبل الموت.

ويقول ابن سینا<sup>(٢)</sup> إن لجميع الأشياء طبيعة مزدوجة. فإنها كائنات ممكنة - ليس بالضرورة - وممكنة الوجود وجميعها تعتمد واجب الوجود. والإنسان من مادتين: الجسد والروح. وهذه

(١) نسبة إلى الحيوان، والحيوان مصدر بمعنى الحياة الحقيقية قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ بِمَا كُنْتُمْ يَفْعَلُونَ وَلَكِنَّ الْبِرَّ لَدَارُ الْآخِرَةِ لِيَسِيَرُوا فِيهَا فِي سُلُوكِ الشُّرَكَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ فِي شَرِّ مَمَلَكَةٍ﴾ (العنكبوت: ٦٤).

(٢) الإشارات والتنبيهات: طبعة سليمان دنيا (القاهرة ١٩٥٨) ص ٤٥٥. بالورقاء (أى الحماقة الرمادية) التي هبطت من العالم الأعلى ولازمت البدن ولكنها لم تنزل تشوق لعالمها الأول. وقد شرحها الإمام عبد الرؤوف المناوى (١٠٣١هـ) في كتاب له.

العقيدة الأفلاطونية التي كان يأخذ بها هو والمتكلمون المسيحيون، كان ترضى نفوس الناس، إن من جهة الأخلاق، أو من جهة العقيدة الدينية، ومادة النفس شىء قائم بذاته مغاير للجسد ومستقل عنه. النفس تحتاج إلى الجسد لتكون عاملة وهى جزء من النفس العالمية التى هى الانبثاق الثانى الذى انبثق من الله. كان الانبثاق الأول العقلى العالمى، وكان الانبثاق الثالث المادة فالنفس موجودة، إذن قبل الجسد، وهى جوهر حقيقى، لا مادى، ولا يعترىها فساد، بل هى خالدة. (أرسطو كان ينكر خلود النفس) وانتقال النفس عند الوفاة إلى جسد جديد عن طريق التقيصص أمر لا يقره ابن سينا، لأنه كان ينكر التناسخ، وعنده أن هناك أكثر من عقل واحد. وأثر نشاط العقل فى الجسد يبدو فى حركات الرجل وفى ردود الفعل العاطفية فيه.

وعلاقة النفس فى الجسد تبدو بصورة واضحة فى قصيدة لابن سينا فى النفس، وهى قصيدة مشهورة لا يزال الطالب العربى، حتى يومنا هذا، يستظهرها، والفكرة الرئيسية التى تدور القصيدة حولها هى أن النفس البشرية شعاع سماوى يسجن فى ظلام الجسد، ولكنه يحن دومًا للرحيل إلى المصدر الذى صدر عنه.

وكان ابن سينا، أبو على الحسين بن عبد الله (المتوفى سنة ٤٢٨ هـ) طبيبًا وفيلسوفًا، وله فى النفس قصيدة رائعة اشتهرت باسم: ((القصيدة العينية فى النفس الإنسانية))، وفيها يرمز إلى النفس ((شرح القصيدة العينية)).

ونقول قصيدة الشيخ الرئيس ابن سينا:

ورقاء ذات تعزّز وتمنّع	هبطت إليك من المحلّ الأرفع
وهى التى سفرت ولم تبرقع	محبوبة عن كلّ مقلّة عارف
كرهت فراقك وهى ذات تفجع	وصلت على كرهٍ إليك وربما
أنست مجاورة الخراب البلقع	أنفت وما أنست فلما واصلت
ومنأزلا بفراقها لم تقنع	وأظنّها نسيت عهدًا بالحمى
فى ميم مركزها بذات الأجرع	حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها
بين المعالم والطلول الخضع	علقت بهائى الثقيل فأصبحت
بمدماع تهمى ولما تقطع	تبكى إذا ذكرت جوارًا بالحمى
درست بتكرار الرياح الأربع	وتظل ساجدة على الدّمّن التى
قفص عن الأوج الفسيح الأربع	إذ عافها الشرك الكثيف وصدّها

حتى إذا قرب المسير من الحمى  
وغدت مفارقة لكلٍ مخلف  
سجعت وقد كشف الغطا فأبصرت  
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق  
فلأى شىء أُهبطت من شامخ  
إن كان أرسلها الإله لحكمة  
فهبوطها إن كان ضربة لازبٍ  
وتعود عالمة بكل خفية  
وهى التى قطع الزمان طريقها  
فكأنها برق تألقت بالحمى

ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع  
عنها حليف الترب غير مشيع  
ماليس يدرك بالعيون الهجوع  
والعلم يرفع كل من لم يُرفع  
عالٍ إلى قعر الحضيض الأوضع  
طويت عن الفذ اللبيب الأروع  
لتكون سامعة لما لم تسمع  
في العالمين فخرقها لم يرقع  
حتى لقد غربت بعين المطلع  
ثم انطوى فكأنه لم يلمع